لوحات عن قرية فلسطينية

Karen Seger (editor), *Portrait of a Palestinian Village The Photograghs of Hilma Granqvist,* With a Foreword by Shelagh Weir, London: Third World Center for Research and Publishing, 1981, 176 Pages.

هل الصور جزء مفيد من نسيج التاريخ الاجتماعي وشواهد مفعمة بالحيوية على الطريقة التي كان يعيش بها الناس في الماضي أم انها، في أحسن الأحوال، آثار عاطفية و«لحظات مجمدة» ليس لها سوى قليل أهمية الاّ لمن يعرفون موضوع الصورة؟

لا شك في أن هناك مشاكل كثيرة تعترض سبيل الذين يبحثون عن لمحات «حقيقية» من ماضي فلسطين في تراثها التصويري. فقد كان المصورون الأوروبيون (الذين شكلوا غالبية من التقطوا الصور في فلسطين، في أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين) وبعض زملائهم المحليين المحترفين، مولعين بأخذ صور تضع البلاد وسكانها في اطار استشراقي أو توراتي، وأدى ذلك، في بعض الحالات، وبخاصة في أعمال المصورين المحترفين، الى تشويهات فادحة. وحتى عندما يكون التلاعب بالموضوعات أقل شططاً فانه كثيراً ما يجعل من الصعب على المرء أن يمنح ثقته للشاهد الذي يطالعه في الصور الفوتوغرافية الكالحة أو في الصور المطبوعة على شرائح من زجاج.

ولا شك في أن النوع ذاته من الاختيار والتشويه موجود في الكثير من التصوير «الكولونيالي». وكان للبلدان المحيطة بفلسطين: سوريا ولبنان ومصر، وكذلك شمال أفريقيا، نصيبها الوافر من الصور الاستشراقية: «شيوخ بدو» صحراؤهم تتشكل من ستارة قماشية مرسوم عليها بضع أشجار نخيل وبعض صخور اصطناعية في استديو، «وفلاحون»، و«سيدات شرقيات» تصوبن نظرات اغواء من خلف النقاب تخفي وتكشف. ولكن، في حالة فلسطين، كان هناك اهتمام خاص بمماهاة المواقع والسكان بالتوراة. وكان لهذا فائدة غير مقصودة تتمثل في أنه أدى الى وجود عدد من الصور عن الزراعة أكبر مما هو عليه في حالة الأقطار المجاورة. ولكن الفلاحين كانوا، في العادة،يحولون الى «رعاة صالحين» كي يتطابقوا مع أنماط العهد الجديد. وتبدو هذه الصور معلقة في الزمان رغم أن الفترة التي أخذت فيها كانت فترة اتسمت بسرعة تغير وتيرة حياة هؤلاء الفلاحين. تلك الفترة التي كانت مقدمة للجيشان السياسي والاقتصادي، وفي النهاية الاقتلاع الجسدي في الثلاثينات والأربعينات.

غير أنه يمكن القول: ان هناك على الأقل شيئاً تحققه هذه الصور، وهو دحض وجهة نظر المستعمرين الصهيونيين القائلة ان السكان المحليين، في تلك الفترة، لم يكونوا غير حفنة لا تصلح لشيء ويمكن تجاهلها والتخلص منها. فمهما كانت الطريقة التي صور الناس بها في هذه الصور ملتبسة، فانها تشكل دليلاً على وجود سكان مستقرين ونسيج اجتماعي ــ اقتصادي قائم.